على هامش الفكر

المعـــانى والظلال

للأستاذ سيد قطب

هناك فارق حاسم بين لغة العلم ولغة الفن ، نستطيع إجماله ، فى أن العلم يعنيه ما فى السطور ، وأن الفن يعنيه ما بين السطور ، وبتعبير آخر إن العلم يعنيه معنى التعبير ، والفن يعنيه الظل الذى يلقيه التعبير . ولا يفهم أحد من هذا ما كان مفهوماً عندنا قبل ثلاثين أو أربعين سنة من أن الفن هو تلك الألاعيب اللفظية ، والبرقشات التعبيرية ، فبين هذا وبين ما نريده فرق بعيد

إن ما نقوله لا يتنافى مع صدق الإحساس ، وصدق التعبير عن الحياة ، وهما مفرق الطريق بين ما كان يعنيه الأدب قبل هذا الجيل ، وما يعنيه الآن . وبعد تحقق هذه المرحلة نبحث عما فى السطور وعما بين السطور أو عن المعانى والظلال فى التعبير عن الأحاسيس الصادقة التى هى الخطوة الأولى فى كل أدب صحيح

وحين نأمن اللبس من هذه الناحية نتحدث ـ فى حرية ـ عن أشكال التعبير وعن طرق الأداء التى نفضلها على أشكال وطرق أخرى

لقد أخذنا على الأدب العربى فى جملته أن «المعانى» تعنيه ، أكثر مما تعنيه « الحالات النفسية » وأن التعبير فيه يعنى بهذه المعانى الكلية ـ الحسية أو الذهنية ـ قبل أن يعنى « بالإنسان » من وراء هذه المعانى والإحساسات

وعذر العرب فى هذا واضح . لقد كانوا أمة حس ، لا تختزن فى نفوسها رصيداً من الأحاسيس والوجدانات إنما تنفقه للحظة فى الحركة والعمل ، فضلاً على أن طبيعة بلادهم لا تهيئ لهم هذا الرصيد

فما عذرنا نحن ـ فى مصر خاصة ـ وبيئتها أبعد ما تكون عن بيئة الصحراء فى ألا ننتفع بالبيئة المواتية والطبيعة العريقة ، فى إبداع فن يأخذ من اللغة العربية ألفاظها وعباراتها ، ويغير فى طريقة الإحساس وطريقة التعبير ، لنكون بهذا أمناء لأنفسنا ، أمناء لطبيعة بلادنا ، أمناء للفن الرفيع فى جوهره ومظهره

لقد تحدثت فى المقالات الثلاث الماضية بمناسبة كتاب « عرائس وشياطين » عما نعنيه بالجانب الإنسانى وعما نعنيه بالحالات النفسية ، فاليوم أتحدث عن طريقة الأداء التى نؤثرها ، ونبين المزايا الفنية لهذه الطريقة

* * *

التعبير الذى يلقى المعنى مجرداً يخاطب الذهن وحده ، والتعبير الذى يرسم المعنى صورة أو ظلاً يخاطب الحس والوجدان ، ويطبع فى النفس صورة من صنع الخيال . وطبيعى أن الطريقة الثانية أقرب إلى طبيعة الفنون ، وأن الطريقة الأولى أقرب إلى طبيعة العلوم . والنموذج يوضح هذه القضية أكثر مما يوضحها أى بيان ، فالنقد الفنى موكل بالمثال أكثر من الإجمال :

لقد اختار القرآن الكريم طريقة التصوير والتخييل ، وجعلها قاعدة فيه للتعبير . ومن العجيب أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول ، ثم لا يستفيد الأدب العربى من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله ، وتيسيره للذكر فى أيديهم . إلا فلتات فى ديوان كل شاعر ، هى امتداد للتصوير فى الأدب الجاهلى وعلى طريقته ، لا على طريقة القرآن الرفيعة

ولعل مرد ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأفق الرفيع فى ذلك الأوان . فلعلنا أن نكون اليوم أحق بهذا التطلع من جميع من مضوا من شعراء العربية خلال أربعة عشر قرناً

إن تفرد القرآن بطريقته التصويرية فى هذا المستوى بين الشعر الجاهلى قبله والشعر العربى بعده يمكن أن يتخذ دليلاً فنياً على تفرد مصدر هذا القرآن ، لولا أننا هنا فى مقام البحث الفنى ، لا البحث الدينى

والآن نعود إلى نماذج القرآن التصويرية فى التعبير ، لبيان فضل هذه الطريقة من الناحية الفنية :

١ — معنى النفور الشديد من الدعوة إلى الهدى ، يمكن أن يؤدى فى صورته التجريدية الذهنية على نحو كهذا : إنهم لينفرون أشد النفرة من الدعوة إلى الإيمان . فيتملى الذهن وحده معنى النفور فى برود وسكون

ولكن التعبير القرآنى يؤديه فى هذه الصورة الحية المتحركة : « فما لهم عن التذكرة معرضين ؛ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال ، ويثور فى النفس شعور السخرية وشعور الجمال ؛ السخرية من هؤلاء القوم النافرين كالحمر ، الوحشية المذعورة من الأسد ، والجمال الذى فى الصورة المتحركة الطليقة

فللتعبير هنا ظلال حوله تزيد فى مساحته النفسية ، إذا صح هذا التعبير !

٢ — ومعنى عجز الآلهة التى كان العرب يعبدونها من دون الله ، يمكن أن يؤدى فى عدة تعبيرات ذهنية مجردة كأن يقال : إن ما تعبدون من دون الله لأعجز من خلق أحقر الأشياء . فيصل المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً

ولكن التعبير القرآنى يؤديه فى هذه الصورة :

(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ؛ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

فيحيا هذا المعنى الساكن ، ويتحرك فى تلك الصور المتحركة المتعاقبة

أرأيت إلى تصوير الضعف المزرى ، وإلى التدرج فى تصويره بما يثير فى النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين :

« لن يخلقوا ذباباً » وهذه درجة « ولو اجتمعوا له » وهذه أخرى « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » وهذه أنكى

ولكن أهذه مبالغة ؟ وهل البلاغة فيها هى الغلو ؟

كلا ! فهذه حقيقة واقعة بسيطة . فهؤلاء الآلهة « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الإعجاز فى خلقه هو الإعجاز فى خلق الجمل والفيل . لأنها معجزة خلق الحياة ، يستوى فيها الجسيم والضئيل ، وليست المعجزة فى صميمها هى خلق الهائل من الأحياء ، وإنما هى خلق الذرة الحية المفردة

ولكن البراعة هنا هى فى عرض هذه الحقيقة بصورة ترسم العجز عن بلوغ مسألة هينة فى ظاهرها ، والجمال هنا هو فى تلك الظلال التى تلقيها خطوات الصورة من خلال التعبير

٣ — والتعبير الذهنى المجرد عن هول يوم القيامة يمكن أن يكون نصوصاً كثيرة ، كأن يقال « إنه لهول مفزع مروع مذهل ... » فلا ترتسم فى النفس صورته كما يرسمها التعبير القرآنى المصور :

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ؛ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ)

وليس النسق القرآنى وحده فى النظم هو الذى يرتفع بهذا التعبير إلى مستواه الذى تستشعره النفس عند تلاوته . إنما هى هذه الطريقة التصويرية كذلك ، حيث يزدحم الخيال بصور كل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، شاخصة تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تمى ، وصور الناس سكارى وما هم بسكارى ، فى عيونهم ذهول السكر ، وفى خطواتهم ترنحه

إن هذا الحشد من الصور الذاهلة هو العمل الفنى الضخم فى هذا التعبير

وليست هذه الصور فلتات فى القرآن إنما تلك طريقة متبعة وخصيصة شاملة ، وفى هذا يتفرد القرآن وحده . فالتصوير قد يقع فلتات فى الشعر العربى ، تكثر فى الشعر الجاهلى وتقل فى الشعر الإسلامى . ولا يعد قاعدة فى هذا الأدب كله . ثم تبقى بعد ذلك درجات السمو فى هذا التصوير . ولها مجال غير هذا المجال

* * *

طريقة التصوير والتظليل التى نوجه إليها الأنظار ، هى الطريقة

التى وردت فيها فرائد الشعر العربى التى تهيأت للشعراء على ممر الأجيال

فأجود ما وقع لامرىء القيس هو من الشعر التصويرى مثل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت : له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فتشخيص الليل هنا ومنحه الحياة ، ورسم هذه الصورة المتحركة له ، هى موضع الجمال فى هذه الأبيات لا مجرد معنى أن الليل قد طال وأنه سئم هذا الطول

وكذلك بيته الآخر فى وصف حصانه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبـــل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وما فيه من تشخيص الصورة والحركة ، لا مجرد معنى أنه يكر ويفر ويقبل ويدبر فى لحظة واحدة . وأجود ما وقع لزهير أبياته التصويرية كذلك مثل :

إذا ما غَدَوْنا نَبتغى الصيدَ مرَّةً
متى نَرَهُ فإننا لا نُحَاتِلُهْ
فَبَيْنا نُبَغِّى الصَّيْدَ جاء غُلامُنا
يَدِبُّ ويُخْفى شَخْصَهُ ويُضائِلُهْ

فى صورة هذا الغلام الشاخصة هنا وفى حركته المرسومة كأنما على الشاشة جمال فنى لا شك فيه

وأجود ما وقع لسويد بن كاهل اليشكرى أبياته التى يصور فيها حاسده صوراً شاخصة فيها الملامح الحسية والانفعالات النفسية . وجميعها صور وظلال لا معان مجردة :

رُبَّ من أنضجْتُ غيظاً قلبَهُ
قـــد تَمَنَّى لى موتاً لم يُطعْ
ويرانى كالشجا فى حلقه عَسِراً مَخْرَجُهُ ما يُنتزع
عُوِّدَ يَخْطُرُ ما لم يَرَنى فإذا أسمعته صوتى انقمع
لم يضرنى غير أن يحسدنى فهو يَرْمِ فومثلما يرقو الضوع »[1]

فتتم الصور المزرية التى يرسمها له بعد أن تترك فى النفس ظلالاً واضحة ، وفى الحس صوراً شاخصة ، فيها كل جمالها الفنى الذى يتيحه التصوير والتخييل[2]

ويكثر التصوير فى الشعر الجاهلى ، ويقل فى الشعر الإسلامى ، على عكس ما كان منتظراً بعد وجود القرآن بين أيديهم ، وتعبيره كله قائم على الطريقة التصويرية ، ولكن قاتل الله « المعانى » ، لقد أصبحت كل هم الشعراء وغلبت طريقة العلم على طريقة الفن ، فتقهقر الأدب العربى من هذه الناحية ، بجانب خطواته التى تقدمها فى نواح أخرى

فإذا نحن تجاوزنا ابن الرومى — وهو فريد فى تاريخ الأدب ، العربى كله — لم نعثر إلا على فلتات فى ديوان كل شاعر ، قام فيها التعبير بمهمة التصوير . فلتات قد تكون مائة وقد تكون ألفاً ، ولكنها تبدو ضئيلة جداً بين ملايين الأبيات من الشعر العربى على ممر الأجيال

وإن أجود ما وقع للشعراء هنا كذلك ، لهى الأبيات التى عبر عنها بطريقة التصوير والتخييل . مثل بيت مسلم بن الوليد الذى نقلناه فى كلمة ماضية :

تمشي الرياح به حسرى مولهة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

وما فيه من تشخيص وخلع الحياة على الرياح

ومثل بيتى كثير :

وإنى وتهيامى بعزة بعد ما تخليت مما بيننا وتخلّت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تهيأ منها للمقيل استهلت

وما فيها من حركة متخيلة : حركة حسية تقابلها حركة نفسية فى تساوق واتفاق . ومثل بيتى المتنبى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

(١) الضوع : ذكر الضفدع !

(٢) فى الجزء الأول من حديث الأربعاء للدكتور طه حسين بك بحث كامل عن هذا التصوير .